

## تداركه القلوب

بقلم الروائية: رباب كساب

كثيراً ما تساءلت عن هذا الذي يهددونني بغضبه، ويتوعدونني بناره، ويعدونني بجنته، أين هو؟ أشاروا عاليًا نحو السماء، نظرت بعيني طفلة في طور الاكتشاف إلى السماء؛ طالعتني النجوم، ومراتٍ غشيَّ عينيَّ نورُ الشمس، صاحبني القمر، لكني لم أره، أين هو؟ قالوا: «لا تدركه الأبصار!»! الأبصار لا تدرك الكائنات الدقيقة، تلك التي نحتاج إلى ميكروسكوبات كي نراها! لا تدرك الخلايا! لا ترى الطفرات الجينية! ولا تعرف كيف تراقب سير الدم في الأوردة والشرايين! ولا يمكنها أن تشاهد ما يفعله الكلوروفيل أثناء عمليات التمثيل الضوئي داخل النبات!

العين لا ترى الكثير، لا تقولوا: «لا تدركه الأبصار» فقط وتكتفون، إن كل ما لا تدركه الأبصار آية من آيته، عليكم أن تقولوا -بلا مواربة-: «تدركه القلوب».

عرفته البصيرة، وعرفه قلبي، وامتلاً به مرات ومرات، في لحظات رضاه ولحظات سخطه... أعرف أنه إلى جواربي.. أشعر به حين أمُرُّ ببائع بسيط لأشتري شيئاً، فإذا بالرجل يترك ما بيده لينظر إليّ ويلهج لسانه بدعاء كنت بحاجة إليه، أو حين أكون في ضائقة فتقابلني عجوز تكاد تسقط على الأرض من فرط الوهن والتعب، فأسندها، وأحمل عنها أشياءها، فتربت على كتفي بحنان، وتبتسم ابتسامة تزيح ضيقي، قبل أن تختفي من أمام عيني، أرسلها لي.. أعلم أنه بعثها ليقول لي: أشعر بك.

إنني أراه حقاً.. أراه بلا كذب؛ ذات صيف وكان ميدان الثورة عامراً بأهله.. كانت الشمس قاسية.. مررت أبحث عن بائع المراوح التي يمسكها الجميع من حولي، لا أعرف أين اختفى، وقبل أن أكف عن بحثي مرَّ بي رجل قصير لا أعرفه؛ مد لي يده بالمروحة ومضى، دون أن أبرح دهشتي وأشكره، إنه هو؛ يخفف عن القلوب، يربت على ظهور عباده، الرحمن الرحيم دائماً.

قبل سنين شعرت بظلم لأنني لم أخط بما أستحق، وأجبرت على دخول مكان ليس لي، شعرت بنقمة وغضب كبيرين لا يفارقانني، مر عام وآخر، وزاد عام وآخر، ولازال غضبي في قمته، حتى جاء يوم، وفي لحظة فراغ قاتلة، تأملت فيها ما مضى، فرأيت أن ما أغضبني هو أكثر ما ناسبني بالفعل، ما كان لي سواه، لقد انتقى لي؛ إنه يعرفني، يراني وأراه!!

إنه يسكنني! ليس لأنه سمح لي مرتين أن أشعر به بداخلي، مرتان في عمري، بينهما سنوات تزيد عن السنين العشر: المرة الأولى كنت في واحد من بيوته، وحين دخلته، وجدته أحرُّ ساجدًا، بقوته وجلال حضرته؛ احتضنت وجوده بالصلاة، المرة الثانية كان قلبي قد فتح مصراعيه ليحب، وفي غمرة إحساسي بأنني وجدت ضالتي وجدته يملؤني بنور وإحساس أكبر من وصفهما، كان معي، كان بداخلي، إنه يباركني، فاطمئن قلبي وسكن، لكنه لم يسكنني لهذا، أعرف وجوده داخلي حين أقابل في الصباح ابتسامة من وجوه لا أعرفها، حين يشملني دعاء لم أقله، لم يُردِّده لساني، لكنه يرسم على وجهي رغبتني، ويلبها أناس لا أعرفهم ولا يعرفونني، فأعرف أنهم رسله الطيبون، وأراه جليًا.